# اللغة كائن حيّ
## خاضع لناموس الحيـــاة

وجدت اللغة بوجود العقل الإنساني ، ومشت مع الإنسان في مراقي التطوّر والاختبار . وكما تشعّبت الجماعات البشرية بمرور الزمن واختلاف الهيئات تشعبت لغاتهم أيضاً . وليس ما نعهده اليوم من اللغات المنتشرة في شتى البلدان وبين مختلف الأمم إلاّ مواليد أمّهات قديمة عاشت دهراً ثم أدركها الموت فاندثرت ولم يبق منها إلا بقايا آثار أو سمات توارثها الأخلاف عن الأسلاف . فكيف تحيا اللغة وكيف تموت أو تتحوّل مع الزمن ؟ ذلك ما نحاول تبيانه في هذا المقال الوجيز .

من المتفق عليه أن النطق الإنساني عريق في القدم يرجع إلى عهود لا يمكن تحديدها ، وإلى أسباب لا يزال الاختصاصيون في علم اللغات مختلفين فيها . والذي نستطيع أن نقوله الآن أن نظرية التوقيف ( أي أن اللغة تلقّاها الإنسان رأساً من الله ) لم تعد تحظى بقبول عند الباحثين ، فهم مجمعون على أنها نشأت نشوءاً طبيعياً وأنها تخضع لناموس التطوّر وأن لحياتها واندثارها أسباباً يمكن النظر فيها بطريقة البحث العلمي الراهن .

ومن أهمّ ما لفت نظر العلماء في اللغات ما لمحوه بين بعضها من قرابة تميّزها عن سواها . وقد تمكّنوا من تقسيمها إلى كتل أو مجموعات كلّ منها ذات فروع ترجع إلى أرومة قديمة فنسبوا اللغات الأوربية مثلاً إلى الأرومة الهندية الأوربية أو الآرية ؛ ونسبوا اللغة العربية وشقيقاتها كالآرامية



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والعبرية والبابلية والحبشية والفينيقية وسواها إلى الأرومة الساميّة ؛ وقس على ذلك ما فعلوه بشتى اللغات الآسيوية والافريقية . وليس لهذه الأرومات الأصليّة من كيان ظاهر الآن . فقد ماتت أو تحولت بفعل العوامل الطبيعيّة بعد أن خلفت سلالات فرعيّة مختلفة ، كما يموت الأجداد والآباء ويتركون وراءهم أولادهم وأحفادهم . وآية ذلك أن الأمم في أوائل عهودها تكون بدائية لا تعرف بل لا تهتمّ من أمور الحياة إلا بما يمتّ إلى حاجاتها المعيشية البسيطة مندفعة إلى ذلك بدافع الغريزة والطبيعة . وفي مثل هذه الحال تكون لغاتها محدودة الألفاظ والمعاني . ولكن عهد البدائية لا يدوم إلى الأبد ، فقد عرفنا من التاريخ أنه لا بد من أن يتبعه مهما طال عهود تحضّر وتقدّم . فالإنسان مع الزمن يزداد اختباراً ومعرفة فتزيد حاجاته وتتسع أغراضه ومطالبه ، وبالتالي يحتاج إلى توسّع في التعبير عن تلك الحاجات والأغراض والمطالب . وهكذا تنمو لغته لفظاً ومعنى .

ثم انه كثيراً ما تضطر بعض الجماعات أن تنفصل عن مجموعتها الأصلية انتجاعاً للرزق أو طلباً بما يحسّن حالها فتقصد بقاعاً جديدة شتى فتتوزع فيها كتلاً كتلاً ، كل كتلة تقيم في بقعة منعزلة عن سواها ، حيث تُنشيء مجتمعاً خاصاً يتولّد فيه تدريجاً عادات ولهجات تميّزه عن سواه . ومن هنا تنشأ مع الزمن شعوب مختلفة ذات لغات خاصّة ، ولكن الشعوب لا تبقى في عزلة بعضها عن بعض ، فالتطوّر العمراني يدعوها إلى التواصل والتعامل ، وبهذا التواصل والتعامل تزداد الشعوب اختباراً وحضارة ، وبالتالي يتسع المجال لنموّ كيانها ويتم ذلك باحدى ثلاث طرق أو بهن جميعا :

١ — أن تضيف معاني جديدة إلى ألفاظ قديمة فيها .

٢ — أن تخترع ألفاظاً ومصطلحات جديدة للتعبير عن معانٍ أو مستحدثات جديدة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣ — أن تقتبس ألفاظاً أو مصطلحات عن سواها .

ولنمثل على هذه الطرق الثلاث بألفاظ من لغتنا العربية :

فمن الأمثلة على الأولى أي إضافة معانٍ جديدة لألفاظ قديمة الكلمات التالية :

فنّان — وهي في معاجمنا القديمة تطلق على الحمار الوحشيّ له فنون من العدو ، أما اليوم فقد أضيف إليها معنى الحاذق في فن من الفنون الرفيعة .

السيّارة — وقد جاءت قديماً بمعنى جماعة المسافرين ، ثم استعملت لهذه الكواكب التي تدور حول الشمس . وهي تستعمل اليوم أيضاً للمركبات المعروفة بالأوتوموبيل .

القِطار — كانت تعني قبلاً صفاً من الجمال مقطوراً بعضه إلى بعض . وأضيف إليها حديثاً معنى مركبات السكة الحديدية .

الدَّبّابة — معناها الأصلي ما يدبّ من الحيوان . وتستعمل اليوم أيضاً لدبابة الحرب المعروفة بلفظة ( Tank ) .

المُضيف أو المضيفة : أصلها من أضاف أي استقبل الضيوف في منزله . وقد اكتسبت اليوم معنى آخر فصارت تُطلق على الفتاة التي تهتم بأمور الركاب في الطائرة .

وقس على هذه الألفاظ القليلة عشرات بل مئات سواها .

ومن الأمثلة على الطريقة الثانية أي اختراع ألفاظٍ لمعانٍ أو أفراض جديدة قولنا :

جَواز السفر — لورقة تجيز لنا السفر إلى خارج البلاد .

الملفّ — دفتر أوراق خاصّة ويقابل دوسيه بالفرنسية ( Dossier ) .

الدرّاجة — للعجلة المعروفة بالبسكلات ( Bicyclette ) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المجرّدات — لألفاظ المعاني ( Abstracts ) .

الهاتف — لآلة السمع المعروفة بالتليفون .

نِصاب الجلسة — وهو العدد الكافي لتكون الجلسة قانونية .

مستوصف — لمكان فحص المرض .

الشيوعية — للنظام الاقتصادي والسياسي المعروف .

المرشّح للانتخاب — من يقدّم اسمه للانتخاب في هيأة ما ( Candiolerte ).

التصويت في الجلسة — إعلان القبول في جلسة ما لقبول المرشح ( Voting ) .

فرط الحساسيّة — ( Heppersenaibility ) .

الذرّة — ( Atom ) .

وقد كان اختراع الألفاظ ولا يزال الشغل الشاغل لأئمّة اللغة ؛ ولهم مئات من الكلمات الجديدة في شتى المناحي العلمية والاجتماعية .

وقريب من اختراع الألفاظ لمعانٍ جديدة وضع مصطلحات مجازية لأغراض خاصة نحو قولهم :

دخل في المِلاك — أصبح في سلك العمل أو الوظيفة الدائم أو القانوني

وَضَعَ الأمر على بساط البحث — عرضهُ على الجماعة للبحث

غَسَلَ يديه من القضية — أي تبرأ منهـــا

ضَرَبَ الرقمَ القياسي — أي بلغ رقماً لم يبلغه سواه

السُّوْق السوداء — الاتجار غير القانوني

ناطحات السحاب — البنايات الشاهقة

وأمثالها عشرات من المصطلحات الجديدة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أما الطريقة الثالثة أي اقتباس ألفاظ من لغات أجنبيَّة لا سبيل أو لا فائدة من تكلّف نقلها بالترجمة ، فقد اعتمدها علماء العربية القدماء كما اعتمدوا وضع الألفاظ والمصطلحات العربية .

والذي يراجع حركة التعريب والترجمة أيام العباسيين يرى ما لا يُحصى من هذه الألفاظ المقتبسة . ولما كان غرضنا هنا تقديم بعض الأمثلة على ما أشرنا إليه من طرق نموّها فاننا سنكتفي الآن بقليل مما شاع في لغتنا من المقتبسات الأجنبية كالألفاظ التالية : اكسوجين ، راديو ، فيتامين ، بورصة ، فلم ، دكتوراه ، قرطاس ، نفط ، فردوس ، منبر ، مسك ، باكالوريا ، اسطول ، أسطورة ، جغرافيا ، اسطول ، استاذ ، بطاقة ، درهم ، دينار ، كوكتيل .

ولا نبالغ إذا قلنا إن أمثالها تعد بالمئات . ولا يعني ذلك أن باب الاقتباس يجب أن يكون مفتوحاً على عارضيه ، فالعلماء قد غربلوا كثيراً المقتبسات ولا يزالون يغربلون ، ولم يبقوا منه إلا على الضروري الضروري مما وجدوا أن تعريبه أفضل من ترجمته وهو كثير ؛ ومهما يكن فإنه معدود في كل اللغات من باب النموّ والتوسع .

ولننتقل الآن إلى الوجه الآخر من التطور اللغوي نعني وجه تأخرها أو اضمحلالها .

فكما أن هناك عوامل تعمل على نموّها وترقيتها ، كذلك هناك عوامل تؤدي إلى القضاء عليها قضاء كلياً أو جزئياً . ومن هذه العوامل ما يلي :

**العامل السياسي** : فقد يسطو شعب على شعب آخر فيحتل بلاده ويتولى شؤونه ولا يلبث أن يفرض عليه لغته ، مثال ذلك ما حدث في بلدان أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية بعد أن استعمرها الأوربيون وأحلّوا لغاتهم الانكليزية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والاسبانية والبورتغالية محل لغاتها الأصلية . وهكذا زالت لغات أمام لغات أخرى أو هي في طريق الزوال .

**العامل الجغرافي أو التجاري** : ولنمثل عليه بما حدث للأمم التي كانت بلادهم مراكز زاهرة على طريق التجارة القديمة بين الشرق والغرب كالسبئيين والحميريين والأنباط والتدمريين وسواهم . فهذه الأمم كانت ذوات لغات حية يوم كانوا في ابان زهوهم التجاري . فلما تحول عنهم طريق التجارة أخذوا بالتأخر وما زالوا حتى زالوا وزالت معهم لغاتهم ، ولم يبق منهم إلا آثار تدلّ على ما كانوا عليه قديماً .

وهناك عوامل اجتماعية وحضاريّة قد نتج عنها في الماضي وقد ينتج عنها في المستقبل اندماج شعبين بعضها ببعض فيتولد عن هذا الاندماج لغة جديدة مستمدة من لغتي الشعبين الأصليتين بحيث لا يبقى لأحداهما كيان ذاتي مستقل كبعض لغات اوربا التي نشأت عن اندماج اللاتينية أو الجرمانية بسواها من اللغات الأصلية .

ومهما كانت اللغة شديدة المناعة قوية في المحافظة على أصالتها ، فان للزمن والتطوّر الاجتماعي تأثيراً بيناً في القضاء على بعض ألفاظها وفي تثبيت ألفاظ أصلح للتعبير عن المعاني والأغراض . اعتبر ذلك في لغتنا العربية التي ثبّت القرآن دعائمها وقرّر أصولها وأصبح المثال الأعلى لأصالتها ، ومع كل ذلك فاننا لو رجعنا إلى ما رُوي لنا منها منذ أيام الجاهلية وتتبعنا تدرّجها في مدارج التاريخ حتى عهدنا الحاضر لوجدنا أن مئات من ألفاظها القديمة قد أهملت في الاستعمال الآن إذ طواها الزمان حتى لا وجود لها إلا في زوايا المعاجم ، وإنما يرجع إليها الراغبون في فهم بعض النصوص القديمة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بل لماذا نبعد كثيراً في التاريخ . حسبنا أن نرجع إلى القرنين الماضيين فقط لنجد أن كثيراً مما كان يستعمله الكتّاب عهدئذ قد استبدل به العصر الحاضر ما هو أفضل منه فمات أو أصبح أثراً بعد عين .

وللتمثيل على ذلك نثبت هنا قليلاً من هذه الألفاظ والمصطلحات ، وقد اخترناها من مؤلفات معروفة لشاهير الكتاب في القرنين الماضيين . ولو أثبتناها جميعاً لما اتسعت لها صفحات هذا المقال .

أمثلة من مصطلحات رفاعة الطهطاوي :

أوراق الوقائع — ( أي الجرائد أو الصحف ) ( كتابه تخليص الابريز ١٢٥٠ ) ٣٣
اللعبة — أي المسرح 〃 〃 〃 〃 ٣٥
العوالم — النساء المغنّيات 〃 〃 〃 〃 ٨٨
دنّ العيار — مقياس المطر 〃 〃 〃 〃 ١٣٧
المارستان — أي المستشفى 〃 〃 〃 〃 ١١١
المشورة — كقوله كانت المشورة تدير فرنسا
أي مجلس الشورى 〃 〃 〃 〃 ١٦٦
ديوان رسل العمالات — أي مجلس النواب 〃 〃 〃 〃 ٧٦
خزانة المستغربات — المتحف ( من كتابه مناهج الألباب ) ١٣٥
فن الأزمان — علم التاريخ الزمني ( من كتاب التعريبات ) ٥
المكحلاتي — الكحال أو طبيب العيون ( من كتابه قانون التجارة ) ٢٠١
سند الرجوع — لما يعرف بالكمبيو 〃 〃 〃 ٥٦
شركة الوجوه — شركة مُتَنَقَّلة 〃 〃 〃 ٧
الأمم الخشينة — ( أي غير المتمدنة ) ( من كتابه بداية القدماء ) ١٤٣
الأزمنة الخرافية الشجيعة — ( الأزمنة البطولية ) 〃 〃 〃 ٦١

★ ★ ★

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن تاريخ الجبرتي : ( مصر ١٩٥٨ )

| | | | |
|---|---|---|---|
| التنصّح بالأمر | — ( أي العبرة به ) | ج ١ | ٢٢ |
| خامر عليه الأمراء | — ( تآمروا عليه ) | 〃 | ٦٥ |
| ألبسوه عليهم | — ( رأسوه عليهم ) | 〃 | ٦٥ |
| قليدهم | — ( متولّي أمرهم ) | 〃 | ١٢٢ |
| القرّاب | — ( الجندي من المشاة ) | 〃 | ٢٧٢ |
| الكاشف | — ( رئيس المقاطعة ) | 〃 | ٢٥٠ |
| السرّاج | — ( الخيّال . الفارس ) | | ٣١٥ و ٤ |
| الخواطيء | — ( البغايا ) | ج ٤ | |
| عمل مهماً لزواج ولده | — ( حفلاً أو عرساً ) | ج ٨ | |
| المعاملة | — ( نقود التعامل ) (العملة) | ج ١٠ | |
| الاشراقات | — ( العُتَقاء ) | ج ٧٤ | |
| ركب في العذارات | — ( العذارات لجم الخيل كناية عن ركوب الخيل في المواسم ) | | ٩٠ |

★ ★ ★

ومن مصطلحات فارس الشدياق :

| | | | |
|---|---|---|---|
| البَدَل | — أي داء المفاصل | (من كتاب كشف المخبّأ ١٢٩١هـ) (ج١) | ١٤ |
| أهل الرستاق | — أي أهل القرى | 〃 〃 〃 〃 | ١٧ |
| الديار | — أي الدور ( جمع دار ) | 〃 〃 〃 〃 | ٢٠ |
| المتشبعون | — أي أهل اليسر والمال | 〃 〃 〃 〃 | ٢٣ |
| المراكب | — أي المركبات (جمع مركبة) | 〃 〃 〃 〃 | ٢٤ |
| العواجل | — أي العجلات | 〃 〃 〃 〃 | ٢٩ |

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العقاقيرية — أي الصيادلة (من كتاب كشف المخبّأ ١٢٩١هـ)(ج١) ٤٦
البياعة — أي السلعة التي تباع 〃 〃 〃 〃 (ج٢) ٦٩
حافلة المجدّ — أي القطار السريع 〃 〃 〃 〃 ٧٠
الفلع — أي البطاطا 〃 〃 〃 〃 ١١٦
ديوان المشورة أي مجلس أهل الشورى
(أو النواب) 〃 〃 〃 〃 ١٤٩
دوائية — أي بائع الأدوية ـ الصيادلة 〃 〃 〃 〃 ١٧٦
السباهلة — من يذهب ويجيء لغير شيء 〃 〃 〃 〃 ٢٥٥
شيخيّته — أي مشيخته (من كتاب فلسفة التربية) ٤٣
قوافي الناس وأسرارهم — أي ما ظهر وخفي منهم 〃 〃 ٥٠
تنضب أرفاسه — تنضب خيراته 〃 〃 ٤١

★ ★ ★

ولفارس الشدياق أيضاً (من كتاب الساق على الساق (طبعة رافائيل كحلا)

الأعصال — أي الأمعاء ٣٤
ثلاثة أصنج من الخبز — أي ثلاثة أرغفة ٧٧
ذو بكلة تروق — أي ذو طبيعة أو هيأة تروق ٨٥
القنافي — الطويل الغليظ ١٠٤
العنقاش — الذي يطوف في القرى يبيع الأشياء ١٢٤
أتى بلماك ليكحله — أي بمكحل ١٤٦
المخاطب — جمع مَخْطَب أي نوادي الخطابة ١٧٥
التحفل بالملبوس — التزيّن به ١٨٧
كونيّة المرأة — طبيعتها أو تركيبها ١٩٦
قُصريّهم وعُميّهم — خاصتهم وعامتهم ٢٠٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

| | | |
|---|---|---|
| العاقلية | — ضد الجاهلية | ٢٣٨ |
| لي عليها قُنّية | — أي مزيّة | ٣٦٨ |
| السَّراباتيّة | — أي منظفو المراحيض | ٣٧١ |
| الأسعدية والأشقوية | — نسبة إلى الأسعد والأشقى | ٣٩٨ |
| القَنج | — قارب نهري | ٤٠٢ |
| يترسّن | — أي يتحصّن | ٤٠٥ |
| الشوافن | — أي الذين ينظرون بكره إلى من سواهم | ٤٠٦ |
| قين | — موقد الحمّام | ٤٠٦ |
| القديديون | — تُبّاع العسكر من أهل الحرف (٢ — ١٤٠) | ؟ |
| فناديق | — قوائم أو لوائح الأسعار | ٥٢٠ |
| الشلاّق | — المخلاة | ٦٢٤ |
| البرازيق | — أرصفة الطرق | ٣٩٨ |
| الحابور | — مجلس الفسّاق | ٤٠٠ |
| الترابيم | — ساحات المدن | ٦٤٨ |
| الفرهد | — الشاب الوسيم | ٩٦ |
| الأراصيص | — نوع من القلانس | ١٦٥ |

★ ★ ★

وهذا قلّ من كثر مما كان قد استعمله كتابنا في القرنين الماضيين ، فما قولك في مئات الألفاظ التي سبق استعمالها في أيام الجاهلية وإبّان العصور التالية وقد خرجت اليوم من نطاق الاستعمال وطواها الزمان في مطاوي الموت أو الإهمال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومما مر بنا آنفاً نستنتج أن اللغةَ ـ كلَّ لغة ـ تسير حتماً في سبيل التطوّر تبعاً لتطوّر الناطقين بها ولتبدّل أحوالهم وظروفهم . ولغتنا العربية لا تشذ عن هذه القاعدة العامة .

على هذا السبيل نشأت أرومات لغوية ثم اندثرت بعد أن تفرعت إلى عدة فروع . وعليه أيضاً تقدّمت هذه الفروع فتجدّد عدد كبير من ألفاظها مبنىً ومعنى ، ودخلها من مفردات ومصطلحات أجنبية ما زادها ثروة ووسّعها لتقبّل ما جدّ من معانٍ وأغراض .

ولا ينكر أن بلاغة الكلمة تتوقف كما أوضح عبد القاهر الجرجاني في كتابَيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة على حسن نظمها في الجملة لا على لفظها وحده ولا على معناها وحده . ومع ذلك نرى أن كثيراً من الكلمات العلمية والحضارية والفنية قد ثبّتت ووطّدت مكانها في اللغة بعد أن كسفت أو زالت مرادفاتها لا لشيء إلا لأنها كانت أعذب مبنى وألطف إيقاعاً وبالتالي أوضح دلالة على الغرض المقصود ؛ وعلى هذا تقوم حجة القائلين بالفصاحة اللفظية ووضع مقاييس لها كأبي هلال العسكريّ في الصناعتين وضياء الدين بن الأثير في المثل السائر وسواهما من علماء البيان .

والذي يبدو لنا أن نظرية الجرجاني أصوب إذا حصرنا نظرنا في البلاغة الأدبية وما تقتضيه من دقة في الإشارة ونظر إلى البعيد من المعاني وما يقتضيه المقام من مطابقة اللفظ له . على أن العذوبة اللفظية ووضوح المعنى لازمان في المفردات التي نستعملها في الكتابة عادةً للدلالة على أشياء تتعلق بالحياة العامة ونودّ أن يطلع عليها الجمهور مهما كانت درجة ثقافته .

فليس من الغريب أن نشاهد في تاريخ لغتنا العربية مثلاً ثبوت مئات من الألفاظ ( عربية الأصل أو معرّبة ) بدل مرادفاتها كقنّة الجبل بدل



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشنعوف ، والقرنفل بدل البنجكشت ، والطفيلي بدل الأوشن ، والأرصفة بدل البرازيق ، والخيرات بدل الأرفاس ، والشرطي بدل الشؤنور ، وقائمة الأسعار بدل الفينداق ، وأمين السرّ بدل الناموس ، وكثير أمثالها .

وليس بغريب أن نستعير ألفاظاً أجنبيّه لمستحدثات لا نرى فائدة في تكلف ترجمتها أو وضع ألفاظ لها غير سائغة للذوق العام .

بل ليس بغريب أن ترتقي بعض ألفاظ عامية إلى درجة الكلام الفصيح لما فيها من حسن الدلالة على المعنى ومن اقتصاد على المجهود الذهني .

ان التطور يجري بطريقة طبيعية من الأشق إلى الأسهل ، ومن المعقد إلى الأبسط ومن المبهم إلى الواضح .

ولغتنا كـكل لغة أخرى سائرة أبداً في هذا السبيل مهما يحاول بعضنا أن يسير بها في سبيل آخر .

أنيس المقدسي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net